فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

(مصر الاربعاء ٢٩ صفر ١٣٢٦ — أول ابريل (نيسان) سنة ١٩٠٨)

كتاب مصر الحديثة للورد كرومر

نظرة إجمالية في الكتاب

أقام لورد كرومر في مصر نحو ربع قرن متصرفا بنفوذ الحاكم المطلق فعرف من أحوال حكومتها وسيرها الاجتماعي ما يعز على غيره من حكام البلاد أو نزلائها من الاوربيين ان يعرفوه ثم أودع زبدة ما عرفه في كتاب يدخل في ثلاثة مجلدات طبع اثنان منها وأوصى هو بطبع الثالث عقب موته لانه خاص بحال مصر في عهد الامير الحالي عباس باشا الثاني والظاهر أنه أشد الاجزاء وَطأ وأثقل قيلا على مصر والمصريين على ان الجزء الثاني لا تستخف وطأته ، بل لا تطاق كلمته ، فهو قد حكم

لكل الشعوب التي تبوأ أرض مصر وطنها ولكنه حكم على المصريين لا لهم ولم يحكم عليهم بالمساواة بل فضل القبط على المسلمين تفضيلا من حيث دينهم وما فيه من المرونة التي تساعدهم على مجاراة المدنية مالا يساعد الاسلام أهله على زعمه

ولم يكتف بالحكم في قضايا الشعوب من حيث هو حاكم سياسي اجتماعي بل حكم ايضاً في قضايا الرجال المشهورين الذين عرفهم من بعض الوجوه وكان حكمه عليهم من غير الوجه الذي عرفهم به اذ حكم على مطويات العقائد ومكنونات الضمائر وخطرات القلوب

ولم يرضه هذا حتى رفع نفسه الى مستوى الحكم على الاسلام من حيث هو دين ومن حيث هو شريعة ونظام اجتماعي فحكم من الحيثية الاولى له وعليه ومن الحيثية الثانية عليه لا له وانتقل من الحكم عليه الى الحكم على أهله عامة حتى في مستقبل أمرهم فكان حكمه هذا صاخة تصخ المسامع وقارعة تصدع القلوب بل هو عبرة للمعتبرين وموعظة للمصريين وسائر المسلمين

رأيت حديث الناس في هذا الكتاب يدور على قطبين (أحدهما) الحكم على شعور الكاتب حينما دون حكمه على المصريين وعلى الاسلام والمسلمين فارأيت بينهم خلافا في كونه كتب بمداد الحقد والحنق وقلم الحفيظة والانتقام من المصريين بما فوقوا اليه من سهامهم، وصوبوا اليه من اسنة اقلامهم، في وقت مفارقته لديارهم، وهو وقت ضاق فيه ذلك الصدر الواسع عن احتمال الانتقاد، بله الشماتة والازراء، على انه قد ظهر ضيق صدر اللورد قبل ذلك في تقريره الاخير، ثم في خطبته التي خطبها قبيل الرحيل،

هذا وأما القطب الثاني لحديث الناس في الكتاب فهو غرضه منه وقد رأيت أهل الفهم والذكاء يقولون من غير مواطأة ولا تقليد ان غاية اللورد من هذا الكتاب هي ان يستل من نفوس أحرار قومه فكرة توقيت الاحتلال ، والخروج من مصر في يوم من الايام ، ويقنعهم ويقنع أوربا معهم بأن لاضمان لحفظ مصالح الاوربيين في مصر بل ولا مصالح المصريين الابقاء الانكليز في مصر لان المصري شديد التمسك بدينه الذي لا يتفق مع المدنية فان هو تركه واتبع هذه المدنية كما يحب الاوربيون ويهوون كانت مدنيته تقليدية لا حقيقية وكان بذلك شرا من المسلم المتدين وأشد عداوة للاوربي وللمسيحي ولو غير أوربي

ويرون ان تصريحه بعدم استحسان ضم مصر الى املاك انكلترا وما أظهره من الميل الى اعدادهم للاستقلال هو من التمويه وذر الرماد في العيون وإلهاء المصريين بالاماني والاحلام، وأصحاب هذا القول غافلون عن طرق الاستعمار الجديدة ومنها حكم البلاد باسم أهلها والرضى بالسلطة الفعلية بديلا من السلطة القولية وقد سبق لنا بيان لهذه الطرق في السنة الاولى من المنار وفي غيرها أيضاً

هذه صفوة الآراء التي دارت بين الناس في شعور مؤلف كتاب مصر الحديثة وفكره المستولي عليه عند الكتابة وفي غايته منه وذلك ضرب من ضروب انتقاد المصنفات مطروق الابواب ، معهود عند الكتاب ، ومما ينتقد على هذا الكتاب وهو من أصول الانتقاد استنباط القواعد الكلية ، من شواذ الحوادث الجزئية ، ولم يسلم اللورد من ذلك فانه في المقابلة بين عقل الغربي والشرقي اورد الامثلة لعقل الشرقي الضعيف

التنظيم والادراك « لاعتقاده بالقضاء والقدر ورضوخه لكل سلطة تتولى أموره » فانه بعد ان دعم الحكم على عقل الشرقي بهاتين العلتين مثل للحكم الكلي العام بما نص ترجمته

(قال اللورد) « حدث أكثر من مرة ان المفتعجي في مصلحة الحديد المصرية حول الخط والقطار عليه لم يمر الا نصفه الى الخط الآخر فادى ذلك الى انقلاب القطار وحدث ايضا ان سائق قطار نسي احيانا اي مفتاح يجب ان يحرك لكي يوقف القطار وحدث مرة ان عمال السكة الحديدية قتلوا لانهم ناموا بعد ان وضعوا رؤوسهم على الخط الحديدي واتما فعلوا ذلك ليثقوا بأنهم يستيقظون على صوت القطار الآتي »

ونقول ان أمثال هذه الجزئيات تقع في أوربا وفي جميع البلاد من جميع الشعوب وناهيك بالطبقة الدنيا من العمال فان ذكي الفطرة عالي النفس لا يرضى لنفسه بأن يكون من أحقر عمال سكة الحديد وناهيك بالمبتدئين من أهل هذه المهنة بها والغالب ان يكون أصحاب ذلك الشذوذ الذي ذكره منهم . فمثال أمثال هؤلاء لا يصح ان يكون مناط المقابلة بين الشعوب في ارتقاء العقل وملكة النظام فيه . وانما ينظر في حالهم من جهة النشاط في العمل والصبر عليه ولعله لو قابل بين فعلة الاوربيين وفعلة المصريين في هذه المزايا لما قدر ان يبخس المصريين حقهم، وان ظن ان القضاء والقدر قد فتك باستعدادهم لكل عمل ! ! ونسي ان أكثر المستخدمين في سكة الحديد من القبط الذين هم على شاكلته في عدم الايمان بالقضاء والقدر

واني أذكر له شيئا من بلادة بعض الاوربيين وغفلتهم هو أبعد عن العقل والنظام مما صدر عن صغار فعلة السكة الحديدية في مصر ناقلا اياه عن

كتاب صفوة الاعتبار لصديقه الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي رحمه الله تعالى فانه كتب في الفصل الذي عقده لبيان عادات أهل فرنسا وصفاتهم ما نصه:

« ومع ذلك (أي انتشار المعارف) فلا يزال في فرنسا خلق كثير على السذاجة والجهل . ودونك حكاية ظريفة تقيس عليها ما يقرب منها . في سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م كان أحد أصحاب العمل باليد مشتغلا جهة « باريس » وكان له ابن مشتغل بجهة « بردو » فلم يوفر الابن من كسبه ما يشتري به حذاء فأرسل الى أبيه يشتكي له الفل ويطلب منه شراء حذاء له فاشتراه له وحمله في الطريق وهو مفكر في كيفية إيصاله اليه فبينما هو ماش اذ مر محاذياً للسلك الكهربائي فقال هذا أيسر طريق ! ! إني أحمله الحذاء وهو يوصله لابني . فجاء الى عود السلك وعلق فيه الحذاء وأسر الى العود بقوله « أوصل هذا لابني فلان في المكان الفلاني » وذهب مسروراً باطلاعه على مسلك سهل بلا مصروف . ثم مر من غد متفقداً ما فعل السلك بالحذاء فوجد في ذلك المكان حذاء عتيقا أفناه اللبس ففرح وقال « ان ابني لعاقل حيث أرسل لي القديم لاستعين به على ثمن الجديد » فانظر الى هذه البلاهة التي لو صدرت من أحد المشرقيين لشنعوا بجميع الجنس بأنه وحشي بعيد عن المعارف وتهذيب الاخلاق » (وقد صدّق ظنّه صديقه لورد كرومر فانه شنع على الشرقيين كافة بما وقع من بعض فعلة سكة الحديد بمصر)

(ثم قال بيرم) « واعلم ان مثل هذا الرجل كثير سيما في القرى الصغيرة والجبال بل وفي أهل المدن كثير ممن يعتقد بالخرافات الباطلة ويعتقد التأثير لا حجار وجمادات ويتشاءم بالاوقات فقد رأيت في كثير من بلدانهم

وبلدان الطليان وكذا الانكليز طاقات في حيطان فيها منارات توقد ليلا بالزيت أو بالشمع العسلي تقربا الى بعض أوليائهم أو الجن معتقدين حلول المتقرب اليه بتلك الطاقة . ولا ينورونها بغير ماذكر من الانواع لان القسوس يقولون لهم ان شمع الشحم أو الغاز من البدع التي لا يتقرب بها . وكذلك يطلبون البخت وقضاء الحاجات من جمادات أو أماكن اعتقاد حلول ارواح فيها . وقد ذكر من هذا النوع في كشف المخبا عن فنون أوربا ما يتعجب منه السامع مما ترى الاوربايين ومن تشكل بشكلهم وتباهى بتقليدهم يحملون عبئه على البلاد الاسلامية وحدها ويجعلونها سخرية وينزهون أوربا عن مثلها مع أنها حاوية لشبهها ولاشد منها . بل ربما أسند ذلك الجاهل او المتجاهل الى ديانتنا الشريفة وحاشا لله ان تؤدي أو ترشد لمثل ذلك بل انما هي المهذبة والمنقذة من غياهب الجهل الى نور المعارف الحاثة على العلم وفتح البصائر » اه بحروفه

هذا ما قاله عن اهل فرنسا وهم أسبق الاوربيين الى العلم والمدنية واذكاهم أذهانا . على أنه قال ان الانكليز كذلك بل قال في كلامه من عادات الانكليز وصفاتهم ما نصه :

« وأما أطوار الطبقة السفلى فهي أشنع مما مر ذكره في همج الفرانسيس سواء كان من جهة الاعتقاد أو من جهة السيرة والحركات فيتطيرون من أشياء كادت ان لا تحصى وينقادون الى السحرة والدجالين بما يخرج عن حد المعقول وكاد التعلم ان يكون عندهم مجهول الاسم فضلا عن المسمى سوى ما يرطن لهم القسوس في الكنائس » الخ

أقول اما خرافات القبور والاولياء التي قال انهم يعيبون الاسلام

بمثلها وهو منها بريء فقد أخذها المسلمون عنهم وهم أخذوها عن اجدادهم أو مجاوريهم من الوثنيين فالاسلام والنصرانية الحقيقية بريئان منها وقد قال صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع » قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ - قال « فمن ؟ » رواه الشيخان وغيرهما

وان تعجب فعجب مقارنته في هذا المقام بين الاوربي مطلقا والعامي المصري في الحساب فقد قال بعد ماتقدم ماترجمته كما في المؤيد :

« وقارن أيضا بين تقدير الاوربي للحساب وبين المصري العامي الذي يشكل عليه إشكالا كاملا كل أمر يتعلق بالارقام أو الكمية فان عددا قليلا من عامة المصريين يعرفون عمرهم . فاذا سألت المصري عن عمر رجل متقدم في السن يكون جوابه غالبا « ان عمر الرجل مئة سنة » ويقول في نفسه ماذا يهم التدقيق في هذا الامر أو أي أمر آخر علمي »

قلت ان هذا من مواطن العجب لان المقارنة فيه بين الاوربي المتعلم والمصري العامي ولماذا لم يقارن في الحساب والارقام بين المتعلم من الفريقين ؟ لعله لانه يعلم ان المصريين من اقوى الشعوب استعدادا للبراعة في الحساب وسائر العلوم الرياضية وقد أراد الانكليز منذ بضع سنين ان يجعلوا ترقية المهندسين منهم على المهندسين من المصريين مبنيا على قاعدة عادلة لظنهم أن الانكليز اعلم وأبرع فامتحنوا الفريقين فاسفر الامتحان عن فوز المصريين وتخلف الانكليز عنهم وسكت الفريقان على ذلك الامتحان فلم يعلموا به الجرائد . اما الانكليز فلما هو ظاهر واما المصريون فلخوفهم ان يحنق عليهم رؤساؤهم وينتقموا منهم

ومما يتقدعليه في كتابه تقليده لغير واحد من كتاب الاوربيين في

آرائهم في الاسلام وكان أجدر من كثير من أولئك الكاتبين بمعرفة حقيقة الاسلام لو أراد أن يعرفه وينصفه فانه عاش في مصر عمراً طويلا وعرف أشهر علمائها بل أشهر علماء الاسلام المعروفين في العالم كله الآن وناهيك بالاستاذ الامام وطول باعه في علوم الدين ورسوخه في فهم القرآن وهو الذي لم يكن يحتاج في مخاطبته إياه وفهمه عنه الى ترجمان كما كان يحتاج في مخاطبة غيره من شيوخ الازهر . ولكنه لم يكن يسأله عن أصول الاسلام وحكمه وأحكامه ولا الاستاذ الامام كان يبتدئه بشيء من ذلك وانما كان يقصد اليه لاجل الكلام في المسائل المصرية لاسيما المحاكم الشرعية . ومما ذكر لي عنه انه كان يذاكره مرة في اصلاح هذه المحاكم ومعارضة قاضي مصر وبعض المشايخ ومقلديهم في ذلك كما حصل في مجلس شورى القوانين وذكر اللورد كثرة شكوى الاهالي من الظلم وضياع الحقوق في هذه المحاكم ولما بين له الاستاذ الامام انه ليس في اصل الشرع شيء ينافي الاصلاح العدل قال له اللورد هل تصدق يا أستاذ انه يخطر في بالي ان شريعة قامت على أساسها مدنية عظيمة تكون غير عادلة ؟ كلا انني أعلم ان كل هذه المفاسد مسائل « اكليركية » اي من تقاليد المشايخ التي تشبه تقاليد رجال « الاكليروس » عند النصارى

أنقل هذا بالمعنى كما احفظه عن الاستاذ الامام واستطرد من ذلك الى انتقاد ما كتبه اللورد عنه ثم ألخص كلامه في الاسلام من حيث هو دين ومن حيث هو شريعة وأبين خطأه وخطله فيه وانتقل من ثم الى المقصد الاعظم وهو مستقبل الاسلام والمسلمين ومراد اللورد وامثاله من أساطين السياسة وامانيهم في ذلك وما يجب علينا من العبرة

والعمل في هذا المقام ، مع تعدد السبل واشتباه الأعلام ،

قول اللورد في الشيخ محمد عبده

لم يسلك اللورد مسلك أصحاب التراجم من المؤرخين فيذكر ما للرجال الذين ترجمهم من الصفات والمزايا وما عليهم من التقصير وانما ألم بذكر بعض كبار الرجال المشهورين إلماما ولم ينظر الى أحد من المسلمين بعين الرضى كما نظر الى الشيخ محمد بيرم التونسي على أنه مدحه بشيء يراه هو مدحا ويراه جميع المسلمين ذما اذ قال فيه «علمه ذكاؤه الفطري ان النظامات التي تعلق بها أسلافه (يعني الشريعة التي جرى عليها المسلمون السابقون) لا بد أن تتلاشى اذا قابلتها المبادئ السامية المرقومة على راية الانكليزي !! رأى كل هذه الامور بعين الناقد البصير » وقال بعد ذلك ان مثله اذا ناقش المسيحي في الامور العامة يكون من النتيجة المحزنة أنه « يكتفي بندب مصير ذلك الدين الذي يحبه وذلك النظام المؤذي الذي اوجده دينه » ثم ذكر انه لا يوجد عند أمثال بيرم من خيار المسلمين طريقة قادرة على احياء الاسلام الذي هو في حالة الموت السياسي والاجتماعي !! ونحن نعلم فيما رأينا من مؤلفات الشيخ محمد بيرم وما سمعنا عنه ممن لقيه أنه كان متمسكا بهذا الفقه ويراه أحسن نظام ويعتقد انه مستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا كان مع ذلك يفضل عليه المبادئ والقوانين الانكليزية او يرى انه نظام مؤذ فكيف يكون راسخا ذلك الرسوخ في الاسلام ؟ أرى انه على إطرائه لبيرم في الدين قد ذمه من

حيث اراد مدحه ولم يعرف حقيقته الدينية كما هي ولا يرضي مريدي الشيخ محمد عبده ان يكون مثله مرضيا للورد في ذلك وان كانوا يعلمون انه لا يعد جميع هذا الفقه ولا اكثره من الدين . وانا نذكر الآن رأي اللورد في الاستاذ الامام في تقريره لسنة ١٩٠٥ ثم نشفعه برأيه في مصر الحديثة ونبين سبب الاختلاف بينهما

قوله فيه بتقرير سنة ١٩٠٥

اختطفت المنية في السنة الماضية رجلا مشهورا في الهيئة السياسية والاجتماعية بمصر أريد به الشيخ محمد عبده فأحببت أن أسطر هنا رأيي الراسخ في ذهني وهو ان مصر خسرت بموته قبل وقته خسارة عظيمة

لما أتيت مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ كان الشيخ محمد عبده من المغضوب عليهم لانه كان من كبار الزعماء في الحركة العرابية . غير أن المغفور له الخديوي السابق صفح عنه طبقا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق فعين الشيخ بعد ذلك قاضيا في المحاكم الاهلية حيث قام بحق وظيفة القضاء مع الصدق والاستقامة وفي سنة ١٨٩٩ رقي الى منصب الافتاء الخطير الشأن فأصبحت مشورته ومعاونته في هذا المنصب ذات قيمة عظيمة ثمينة لتضلعه من علوم الشرع الاسلامي مع مابه من سعة العقل واستنارة الذهن واذكر مثالا على نفع عمله الفتوى التي أفتاها في ما اذا كان يحل للمسلمين تمير أموالهم في صناديق التوفير فقد وجد لهم بابا به يحل لهم تمير أموالهم فيها من غير أن يخالفوا الشرع الاسلامي في شيء

أما الفئة التي ينتمي الشيخ محمد عبده اليها من رجال الاصلاح في الاسلام فمعروفة في الهند أكثر مما هي معروفة في مصر ومنها قام الشيخ

الجليل السيد أحمد الشهير الذي أنشأ مدرسة كلية في عليكده بالهند منذ ثلاثين عاماً . والغاية العظمى التي يقصدها رجال هذه الفئة هي اصلاح عادات المسلمين القديمة من غير أن يزعزعوا أركان الدين الاسلامي أو يتركوا الشعائر التي لا تخلو من أساس ديني . فعملهم شاق وقضاؤه عسير لانهم يستهدفون دائما لسهام نقد الناقدين وطعن الطاعنين من الذين يخامر بعضهم النية في النقد ويقصد آخرون قضاء اغراضهم وحك حزازات في صدورهم فيتهمونهم بمخالفة الشرع وانتهاك حرمة الدين

أما سريدو الشيخ محمد عبده وأتباعه الصادقون فموصوفون بالذكاء والنجابة ولكنهم قليلون وهم بالنظر الى النهضة المللية بمنزلة الجيرونديست في الثورة الفرنسوية فالمسلمون المتعلمون المحافظون على كل أمر قديم يرمونهم بالضلال والخروج عن الصراط المستقيم فلا يكاد يؤمل أنهم يستميلون هؤلاء المحافظين اليهم ويسيرون بهم في سبيلهم . والمسلمون الذين تفرنجوا ولم يبق فيهم من الاسلام غير الاسم منفصلون عنهم بهوة عظيمة . فهم وسط بين طرفين ، وغرض انتقاد الفريقين عن الجانبين ، كما هي حال كل حزب سياسي متوسط بين حزبين آخرين ، غير ان معارضة المحافظين لهم أشد وأهم من معارضة المصريين المتفرنجين اذ هؤلاء لا يكاد يسمع لهم صوت

ولا يدري الا الله مايكون من أمر هذه الفئة التي كان الشيخ محمد عبده شيخها وكبيرها فالزمان هو الذي يظهر ماذا كانت آراؤها تخلل الهيئة الاجتماعية المصرية أولا . وعسى الهيئة الاجتماعية أن تقبل آراءها على توالي الايام اذ لا ريب عندي في أن السبيل القويم الذي أرشد اليه المرحوم الشيخ

محمد عبده هو السبيل الذي يؤمل رجال الاصلاح من المسلمين الخير منه لبني ملتهم اذا ساروا فيه . فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الاوربيين . ولعلهم يجدون بعض التنشيط من نقلي قول الرجل من اهل دينهم وصف فيه المعارضة التي لقيتها مدرسة عليكده الكلية المذكورة آنفاً والطريقة التي تغلبوا بها على تلك المعارضة » وههنا ذكر عبارة عن كاتب هندي اسمه السيد محمود تضاهي عبارته في المقدار

ومما كتب في اواخر الفصل الذي تكلم فيه عن المحاكم الشرعية ما ترجمته

« هذا واني أوافق السر ملكولم مكلريث على ماقال عن الضربة الثقيلة التي أصابت الاصلاح من هذا القبيل بموت المرحوم الشيخ محمد عبده فقد أشرت الى خدمات ذلك الرجل الجليل في فصل آخر من هذا التقرير وأعود فابسط الرجاء أيضاً ان الذين كانوا يشاركونه في آرائه لاتخور عزائمهم بفقده بل يظهرون احترامهم لذكراه أحسن اظهار بترقية المقاصد التي كان يرمي اليها في حياته » اهـ

اما ماقاله السر ملكولم مكلريث وصرح به اللورد بموافقته عليه فهذا نص ترجمته

قول المستشار القضائي في الشيخ محمد عبده

« ولا ينبغي ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في شهر يوليه الفائت وأن أبدي شديد أسفي على الخسارة العظيمة التي أصابت هذه النظارة بفقده فقد كان خير مرشد لنا في كل ما يتعلق

بالشريعة الاسلامية والمحاكم الشرعية وكنا نرجع اليه كثيراً للتزود من صائب آرائه والاستعانة بمساعدته الثمينة وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر كثيراً ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها . وفوق ذلك فقد قام لنا بخدم جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيراً من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية اذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ويناضل عنها ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك وانه ليصعب تعويض ما خسرناه بموته نظراً لسمو مداركه وسعة اطلاعه وميله لكل ضروب الاصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء وظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته الى مدن أوربا ومعاهد العلم . وكانت النظارة تريدان توكل اليه امر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع انشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . اما الآن فانه يتعذر وجود احد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته فلكل هذه الاسباب اخشى ان نظارة الحقانية ستظل زمناً طويلا تشعر بخسارتها بفقده » اه كلام المستشار

قول اللورد فيه بكتاب مصر الحديثة

أما الشيخ محمد فكان عالما من طراز يفضل كثيراً طراز اخوانه الذين أشرت اليهم (كالسادات والبكري) وكان أحد زعماء الفتنة العرابية فلما جئت مصر سنة ١٨٨٣ كان منفيا عليه ولكن الخديوي توفيق عفا عنه بما فطر عليه من مكارم الاخلاق وانقياداً لتشديد الانكليز عليه في ذلك وعينه قاضياً فأحسن العمل وأدى الامانة حقها . وكان متوسعاً في آرائه وعلى علم ونباهة فلم

ينكر المساوئ الفاشية في الحكومات الشرقية وعرف انه لابد من الاستعانة بالاوربيين للاصلاح الا انه لم يكن من عداد المصريين المتفرنجين وكان يقول انهم لم يحسنوا تقليد ما حاولوا تقليده من الاخلاق الاوربية وكان عدوا للخديويين والباشاوات وأريد بذلك انه لو عثر على باشاوات صالحين لما أعرض عنهم ولا عارضهم ولكنه لم يوفق الا الى عدد قليل من خيارهم مع اختباره الطويل . وحقيقة الامر ان الرجل كان مفطورا على الخيال ويرى آراء لا يمكن الجري عليها الا انه كان مع ذلك مصريا وطنيا حقيقيا ومن مصلحة الوطنية المصرية ان يكون أمثاله كثيرا ولكن اذا نظرنا الى نسيج محمد عبده والذين يعلمون تعاليمه من جهة امكان اتخاذهم سياسة للمستقبل نجد ان هناك بعض اوجه الضعف وقد قال المستر ستانلي لاين بول ان المسلم من الطبقة العليا لابد ان يكون أحد اثنين « اما متعصب او ملحد في سره » فمثل هذه الحيرة على شكل مختلف قد أوجدت عقبات في سبيل المسيحيين الذين يؤمنون بحرفية تعاليم المسيح دون معناها أنها عقبات أعظم للمسلم الاصيل الذي يبذل غاية كلية بحرفية تعليم دينه دون معناها وأخشى ان يكون صديقي محمد عبده في حقيقة امره « لا أدريا » ولو انه يستاء من هذه النسبة لو نسبت اليه . وكان معاشروه ومخالطوه يسلمون بعقدرته ولكنهم كانوا يرمقونه شزرا ويقولون انه « فيلسوف » وكل من يدرس الفلسفة اي كل من يدرك الفرق بين القرن السابع والقرن العشرين هو في أعين المتمسكين بالقديم سائر الى الهلاك لا محالة . هذا وان أهمية محمد عبده السياسية هي في أنه اسس مدرسة فكرية في مصر على مثال ما أسس في الهند سيد احمد

منشئ كلية عليكرة وغاية الذين ينتمون الى تلك المدرسة هي تزكية طرق الاسلام في عين الانسان او بالحري في عين الرجل المسلم ولكن شدة اشتباه المسلم المحافظ فيهم واتهامه اياهم بالمروق من الدين يمنعانه من المسير معهم طويلا وزاهم من الجهة الاخرى غالبا غير متفرنجين الى حد ان يجذبوا اليهم المصري المقلد للطرق الاوربية فهم أدنى من المسلم المحافظ في اسلامهم وادنى من المصري المغالي في تفرنجه ولذلك ترى مهمتهم عسيرة جدا ولكنهم جديرون بكل تشجيع ومساعدة يمكن امدادهم بهما لانهم حلفاء المصلح الاوربي الطبيعيون وسيرى كل مصري محب لوطنه ان في تقدم اتباع محمد عبده خير رجاء له في انفاذ برجرامه الا وهو جعل مصر مستقلة استقلالا ذاتيا حقيقيا »

وقد علق اللورد في ذيل هذه الصحيفة قوله — اني قدمت لمحمد عبده كل تنشيط استطعته مدة سنين كثيرة ولكنه عمل شاق فضلا عن العداء الشديد الذي كان يلاقيه من المسلمين المحافظين كان لسوء الحظ على خلاف كبير مع الخديو ولم يتمكن من البقاء في منصب الافتاء لولا ان الانكليز أيدوه بقوة . وقد اثنيت عليه في تقاريري السنوية ثناء عظيما وأنا أعظم الناس أسفا حقيقيا على وفاته على انني في الوقت نفسه لا أرى بدا من الاعتراف بما عراني من الدهشة عند ما طالعت بعض الانباء الجديدة في كتاب المستر ولفرد بلنت فيظهر ان المستر ولفرد بني آراءه في المسائل المصرية على ما سمعه من محمد عبده فقال عنه في كتابه التاريخ السري انه فيلسوف كبير ووطني عظيم . وقد قرأت بدهشة وأسف مما ما يأتي بلسان محمد عبده .

« عرض على الشيخ جمال الدين الفتك باسماعيل يوما عند مروره عربته يوما على كوبري قصر النيل فاستحسنت رأيه ووافقته ولكن الامر اقتصر على الكلام بيننا ولم نوفق الى شخص يتولى تنفيذ هذا العمل » فكفاني أن أقول بعد هذا ان العالم المتمدن عموما ينظر شزرا الى الوطنيين ويحتقر بالاكثر اولئك الفلاسفة الذين لا يتأخرون عن تعزيز مقاصدهم السياسية بمثل ارتكاب القتل » اه من ترجمة المؤيد

المقابلة بين القولين

من قابل بين ما قاله اللورد في تقريره وما كتبه في كتابه «مصر الحديثة» يرى فرقا عظيما بين القولين فان عبارة التقرير لاذم فيها ولا تعريض وعبارة التاريخ فيها ذم صريح ، وتعريض ظاهر بل المدح الذي فيها بمعنى ما في التقرير ضئيل مبهم يحتمل صرفه الى الذم في بعض المواضع فانه لما وصفه بالعلم فضله على السادات والبكري وهما ليسا من العلماء ولما ذكر انه متهم بالفلسفة فسر ذلك بالتفرقة بين القرن السابع والقرن العشرين . وقد قال المؤيد في هذا التفاوت ما يأتي

« قضى المرحوم الشيخ محمد عبده من عمره بضع عشرة سنة وهو صديق مخلص للورد كرومر وقضى هذا اللورد زمنه الذي صادق فيه هذا الشيخ وهو يساعده في الوظائف ويدافع عنه فيها . ويقول الآن بصريح العبارة انه لولاه ما بقي في منصب الافتاء طويلا . كان اللورد يطريه مدحا في حياته كلما ذكر اسمه في مجلسه وكلما جاءت مناسبة لذكره

في تقاريره ويخيل لقارئ كتاب مصر الحديثة الآن ان اللورد يحاول ان يطعن عليه أكثر من كل انسان في مصر لولا ماسبق له من المدح فيه . فلم هذا ؟؟

رأي المؤيد في صداقة اللورد للشيخ

« ان جواب هذا السؤال موجود بين سطور اللورد كرومر فيما كتب عن هذا الرجل في كتابه الاخير » .

ثم ذكر المؤيد في بيان ذلك انه كان من زعماء الثورة العرابية وأوضح ذلك وأكده وذكر قول اللورد ان الخديوي السابق عفا عنه بتشديد الانكليز عليه في ذلك ، وانه كان على خلاف كبير مع الخديوي ثم بين صاحب المؤيد رأيه وأضاف اليه كلمة طالما حاكت في صدره وتوهمها حتى لفظها اليوم فأراحنا وأراح الناس قال ما نصه :

« من خلال هذا الكلام يظهر الجواب الحقيقي وهو أن اللورد كرومر لم يكن صديقا للمرحوم الشيخ محمد عبده كما كان هذا صديقا مخلصا له ولكنه كان متمسكا بصداقته الظاهرية لانه كان يريد أن يضع في يده رجلا قوي المارضة لدود الخصام عدواً لتوفيق باشا أولا ولخلفه ثانيا ولاسماعيل باشا قبل ذلك . ولامراء في أن المرحوم الشيخ محمد عبده كان يكره طائفة الباشوات كما يقول عنه اللورد من جهة وكان وطنيا صادقا من جهة أخرى . فكان اللورد يحبه من الجهة الاولى ولا يستطيع أن يخلص له الحب من الجهة الثانية . لذلك كان يطريه وهو ينتفع باطرائه . أما الآن وقد مات الشيخ محمد عبده وفارق اللورد كرومر

مصر فلم تكن ثمت حاجة لان يداري اللورد فيه كل المداراة وانا لاحظ أن يداري نفسه لما كتب عنه أولا فيما كتب عنه ثانيا فجاءت كتابته هكذا خليطا من المدح والقدح وثوب الرياء يشف عما تحته

قول المؤيد في الشيخ نفسه

«وعندنا ان المرحوم الشيخ محمد عبده كان رجلا عالما فاضلا ذا خلال محمودة كثيرة من صفات النجدة والوفاء والمروءة ولا نقول كما قال اللورد عنه انه كان ملحدا أو لا أدريا أو ضعيف الايمان لان الايمان من أعمال القلوب التي يستأثر الله بعلمها وأما ظواهره فكانت بحال مقال كثير لا صدقائه من جهة ولاعدائه من جهة أخرى ولكنه كان على كل حال عالما مصلحا يحاول ما استطاع اصلاح الفاسد من الشؤون التي طرأت على الدين ويعمل لذلك بغيرة لا تفتر وفي آخر عهده من الدنيا كان يعتقد في نفسه اعتقادا ملأ جوانحه أنه رسول اصلاح من عند الله فكان يجاهد في سبيل ذلك جهادا حقيقيا وان لم ينل حظ الثقة العامة بذلك . وأضعف الجوانب في أعمال وآراء الشيخ محمد عبده كان الجانب السياسي منه فكان فكره السياسي خياليا غالبا كما قال اللورد لانه كان في كثير من الظروف يخيل له أن يقبض بكلتا يديه على اللورد كرومر من جهة وعلى الجناب الخديوي من جهة فيفشل في الامرين معا حتى يقول الجناب الخديوي من جهته ما يقول فيه وحتى يضحك اللورد من هذا الضعف السياسي فيه

« هذه كلمتنا في المرحوم الشيخ محمد عبده قلناها بحرية تامة في هذه المناسبة لنقول : ان كان اللورد أصاب في بعض ما قاله عن المرحوم الشيخ

محمد عبده فقد أخطأ في حقه مرتين الاولى في حياته لانه لم يكن يعضده ويساعده الا لغرض واحد وهو أن يكون عدواً حقيقياً دائما للخديو فكان يدفعه دائما الى الامام في ذلك والثاني أنه تعرض الآن للطعن على عقيدته والعقيدة مسكنها القلب خصوصا وان الطاعن مسيحي على عالم مسلم فيما هو مسلم به

ولكن اللورد أراد من هذا الطعن شيئاً آخر وهو ان المسلم ان صار مصلحا يوما ما لم يستطع أن يكون كذلك الا وهو مارق من الدين حتى انه لما مدح الشيخ بيرم وذكر من صفاته انه كان يحاول أن يطبق أحكام الاسلام على المعلومات العصرية قال عنه انه كان كمن يحاول أن يربع الدائرة »

قولنا فيما كتب المؤيد

اذا تنازع الكاتب فكران أو شعوران عند الكتابة في موضوع هو أصل في أحدهما والآخر فرع له فيوشك ان يذهله الفرع عن اهم أركان الاصل كما وقع للمؤيد فوجب ان نبين ما غلط به المؤيد هنا حتى خفي عليه به خطأ اللورد الحقيقي لنفي الموضوع حقه فنقول

(١) ان الاساس الذي بنى عليه المؤيد تفرقته بين كلامي اللورد في هذا المقام غير صحيح وهو ان اللورد كان يطري الشيخ في حياته اذ كان ينتفع باطرائه في دفعه لمداه الخديو ثم ذمه بعد موته وخروجه هو من مصر لزوال هذه الحاجة . فان هذا الثناء العظيم في تقريره الذي ليس عندنا مدح منه سواه قد كتبه بعد موته واذا كان عند صاحب المؤيد رواية لسانية عن اللورد فهي لا تقوم حجة عليه ولا يصح مقابلتها بما كتبه اليوم الا ان يكون على سبيل التبع

(٢) ان كون الاستاذ الامام كان من زعماء الثورة العرابية لا يصلح سببا ولا جزء سبب لمساعدة اللورد اياه والا لساعد سائر زعمائها

(٣) ان اللورد فسر بغض الشيخ محمد عبده للباشوات بأنه قالها وجد فيهم صالحا وانه متى وجد الصالح لا يعرض عنه ولا يعارضه لصدق وطنيته فوافقه صاحب المؤيد على كونه كان يكره الباشوات وعلى كونه كان صادق الوطنية . ثم مثل بغضه للباشوات بعداوة الخديو الحالي وابيه وجده ونحن لا نوافقه على هذا التمثيل الذي يوهم الحصر . أما كرهه لاسماعيل فهو معقول مهما كانت سنه ومعارفه السياسية في ذلك العهد وسنبين ذلك . واما توفيق فقد كان هو وأستاذه جمال الدين من حزبه وشيعته على أبيه وقد تقدم منه اخراج استاذه من البلاد ونفيه هو الى بلده وكان راضيا منه أتم الرضى عند ماساعد الوزارة الرياضية على الاصلاح في البلاد . ولما حدثت مبادي الثورة العرابية كان الشيخ مقاوما للعرابيين ولما استفحل الامر كان مرشداً معتدلا بحسب علمه وقد ظهر له في اثناء ذلك استمالة توفيق باشا بالانكليز على العرابيين فكرهه في أثناء ذلك كراهة شديدة كما يعلم من مذكراته في شأن تلك الحوادث ومنها ان مذبحة الاسكندرية كانت بايماز من الخديو ليثبت لانكلترا وسائر الاوربيين عجز عرابي عن حمايتهم وقد كتب برودلي المحامي عن العرابيين شيئاً من هذا في كتابه نقلا عنه . وأما العباس أيده الله بتوفيقه وعنايته فقد كان في اكثر مدة ولايته على مودة مع المرحوم وهو الذي اقترح من نفسه جعله مستشاراً في الاستئناف وهو هو الذي اختاره بنفسه مفتيا للديار المصرية ولم يكن للورد دخل في ترقي الشيخ محمد عبده في الوظائف الا عدم المعارضة والفضل الايجابي في ذلك

للامير وحده كما كان يصرح به الشيخ مراراً . ولكن حدث في السنين الاخيرة بينهما شيء من سوء التفاهم بسعاية بعض المفسدين الذين يعرفهم صاحب المؤيد أكثر من غيره اذا كان يقاوم سعايتهم ومفاسدهم الى ان غضب هو أيضاً . وزاد سوء التفاهم تلك المسألة التي أشار اليها المؤيد في ترجمة حسن باشا عاصم فقال ما معناه انها مسألة كان يرى نفسه فيها قائماً بواجب تفرضه عليه الذمة وكان يراه مولاه فيها متعنتاً . — وله ان يقول مثل ذلك في صديقه وشريكه فيها الشيخ محمد عبده —

فمن هذه الخلاصة الوجيزة يعلم ان إظهار اللورد الصداقة للشيخ بضع عشرة سنة لا يتأتى ان يكون المراد به دفعه في عداوة الخديو كما قال المؤيد على انه كان أثبت من ان يندفع بيد اللورد أو غيره فقد كان في الذروة العليا من الاستقلال في فكره وارادته وناهيك أيضاً بوطنيته وديانته . حقا أقول اني كنت أراه حتى في المدة الاخيرة التي توهم فيها سوء التفاهم بينه وبين الامير يتمنى لو يكون الامير موفقاً مؤيداً في كل شيء يرفع شأن البلاد ويفيدها مصوناً من كل شيء ضار واني سمعته غير مرة يقول إننا كلنا معلقون برجليه فاذا اهبطه الانكليز درجة هبطنا تحته لا محالة ، واننا كنا مرة نتحدث في استرضائه فأقسم بأنه لو أمره ان يخرج من البلد لامتثل . ولكنه كان ينكر على المعية امورا كثيرة ويتمنى الوفاق الممكن الذي لا يصحبه ضرر من جهة أخرى . على ان المؤيد استنبط من عبارة اللورد انه يحاول ان يطعن على الشيخ أكثر من كل انسان في مصر لولا ما سبق له من المدح فيه فهل يكفي ان يكون سبب هذا هو الاستغناء عنه بموته وخروجه هو من مصر ؟؟

(٤) توجيه المؤيد قول اللورد في الاستاذ الامام انه كان خيالياً غير وجيه فانه جعل تأويل ذلك بعد التسليم به ان الاستاذ كان يخيل له ان يقبض بكلتا يديه على اللورد من جهة وعلى الخديو من جهة فيفشل في الامرين . وهذا الاستنباط من خيال المؤيد ما أظن انه طاف بخيال اللورد اذ البعد بين الخيالين شاسع جداً . ولخيال المؤيد وجه ودليل من الخارج فان الشيخ رحمه الله كان يتقرب من الامير للاستعانة به قبل كل شيء على خدمة دينه في نحو اصلاح الازهر ثم إبداء النصيحة الواجبة اذا عرض موجبها وكثيراً ما كان يعرض ذلك وقد سمعت من فم الامير في قصره بالقبة انه يستشير الشيخ ويعجبه رأيه ويثق به . وكان أيضاً يختلف الى اللورد للاستعانة به على خدمة وطنه وما كان يطلب منهما شيئاً لنفسه . ومن مصلحة البلاد ان يكون فيها رجال يثق أمير البلاد وعميد الاحتلال معاً بكفاءتهم وصدقهم وذلك من الحقيقة لا من الخيال

(٥) ذكر المؤيد في مواضع ان اللورد طعن في دين الشيخ محمد عبده وجعله لا أدرياً أو ملحداً حتى ان من قرأ عباراته ولم يكن عارفاً بكلمة اللورد يظن انه جزم بهذا الطعن واللورد لم يجزم بذلك وإنما قال «أخشى » كما في ترجمة المؤيد نفسه ، أو « أظن» كما في ترجمة بعض الجرائد فوجب علينا ان نبين ذلك

(٦) قال المؤيد انه لا يطعن في ايمان الشيخ لان الايمان محله القلب وان ظواهره كانت مجال مقال كثير لاصدقائه ولاعدائه !! فنقول اننا نحن نوافق المؤيد على قوله ان الايمان من أعمال القلوب التى يستأثر الله بعلمها ويؤيد هذا القول الحديث الصحيح « هل شققت عن قلبه » لمن

قال يارسول الله اعط فلانا فانه مؤمن . ولكن المؤيد وقع في الحكم على القلب الذي انكره على اللورد اذ قال « قضى المرحوم الشيخ محمد عبده من عمره بضع عشرة سنة وهو صديق مخلص للورد كرومر » فالاخلاص كالايمان محله القلب ولا يمكن ان يطلع عليه الا الله تعالى فكيف أجاز المؤيد الحكم على القلب مرة ومنعه اخرى ؟

أما الظواهر التي تدل على قوة ايمانه فهي اقوى من الظواهر التي تدل على اخلاصه في صداقة اللورد مع العلم بانه كان ابعد الناس عن النفاق والرياء فانه لم يعمل للورد عملا خاصا به أو بدولته ولكنه وقف حياته على خدمة مصر والاسلام ابتغاء مرضاة الله . والمؤيد وان كان قد ادخل في مسألة الظواهر كلمة محتملة ككلمة ابي سفيان لهرقل فقال انها كانت مجال مقال كثير — قد قال من نفسه مقالا جازما هذا نصه :

« ولكنه كان على كل حال عالما يحاول ما استطاع اصلاح الفاسد من الشؤون التي طرأت على الدين ويعمل لذلك بغيرة لا تفتر . وفي آخر عهده من الدنيا كان يعتقد في نفسه اعتقادا ملأ جوانحه أنه رسول اصلاح من عند الله فكان يجاهد في سبيل ذلك جهادا حقيقيا وان لم ينل حظ الثقة التامة بذلك » فالذي يعتقد هذا الاعتقاد لا يمكن ان يكون ملحدا او لا ادريا اي شاكا في وجود الله يقول لا أدري أهو موجود ام لا ؟

صدق المؤيد وان كان في تعبيره بلفظ « رسول اصلاح » غرابة لما لها من المعنى الشرعي الذي ليس بمراد هنا . فان الاستاذ الامام كان يعتقد ان دين الاسلام لابد ان يعود اليه مجده ونوره الذي حال دونه

ظلام البدع والخرافات والتقاليد والعادات وانه هو عالم بحقيقته وبكيفية تسرب البدع اليه وقادر على بيان ذلك وازالته بالحجة وان هذا العمل فرض محتم عليه . وقد غمر هذا الاعتقاد عقله وقلبه وملك جنانه ووجدانه فبذلك كان يرى انه كان ملهم ومسخر من الله تعالى لهذا العمل ليس في استطاعته ان يتوانى فيه . وقد ذكر قاسم بك امين في تأبينه ان بعض اصدقائه كانوا يلومونه على تفريطه في صحته وتعبه في بعض الاعمال التي قلما تأتي بما يتوخاه من الفائدة فيها فيدعهم بالتخفيف ولكنه يصبح في الغد اشد اهتماما وعناية مما كان عليه بالامس . وصدق المؤيد في قوله انه لم ينل حظ الثقة العامة باصلاحه اذ لو نال هذا الحظ لما قال لورد كرومر في الاسلام ما قاله اليوم لأن الاصلاح العملي كان يمنعه من ذلك

رأينا في سبب اختلاف قولي اللورد

قال المؤيد ان الجواب عن التفاوت بين كلامي اللورد مذكور في كتابه وقد صدق في هذه ولكن اخطأ اجتهاده فيما ينبه به اذ لا اجتهاد في مورد النص . اما هذا النص فهو في موضعين ذكر أحدهما المؤيد فيما ترجمه من كلام اللورد في الشيخ وأهله في الرد وأغفل أحدهما في الموضعين . اما الذي ذكره وأهمله فهو هامش اللورد[1] الذي يذكر فيه دهشته من استمداد مستر بلنت اخبار تاريخه السري للاختلال من محمد عبده وفي هذا الكتاب من التشنيع على اللورد وسياسته ما فيه . واما الذي اغفله المؤيد فدونك ترجمته نقلا عن حاشية ص ٥٢٤ من المجلد الثاني في سياق الكلام عن المعارف : « لقد دهشت بل اعترتني خيبة أمل عند ما قرأت في كتاب ألفه

(١) راجع الاسطر الاخيرة من ص ٩٥ من المنار

مسيو جورفيل رسالة للشيخ محمد عبده أعطى فيها ذلك الرجل الشهير رجاحة اسمه «أوقوة اسمه» لتهم أو تعريضات من هذا النوع ولا بد انه كان على يقين من انها لا أساس لها . وكنت أرجو منه افضل من هذا » اه
علق هذا على هامش معناه هل نظر الانكليز الى انحطاط المصريين السياسي أو الاجتماعي نظر المقتبط فلم يحاولوا ترقيتهم كما يزعم بعض سفلة الناقدين ؟

ونحن نقول ان الرجل لم يعط اسمه لترويج التهم أو التعريضات كما ظن اللورد وانما أراد الموعظة والتنبيه الى الصواب الذي يعتقده ولكن صاحب الكتاب استخدم اسمه لترويج كتابه وهو ما كان يقول الا ما يعلم تمام العلم ان أنه صحيح كل الصحة . واذا كان اللورد يرجو منه يوم كتب تلك الرسالة الى جورفيل أمراً أفضل من هذا فهو أيضاً ربما كان يرجو من اللورد قبيل ذلك أمراً أفضل مما رأى منه عند الحاجة الى مساعدته في أهم وافضل غرض له من حياته . واننا نورد الآن ما جاء في رسالة الاستاذ الامام عن المعارف وهو:

ما كتبه الاستاذ الامام لجورفيل عن المعارف

(التعليم العام) لاتنفق الحكومة المصرية على التعليم العام الا مبلغ مئتي ألف جنيه مع ان في وسعها انفاق اكثر منه لان دخلها قد بلغ في الميزانية اثني عشر مليوناً من الجنيهات وهي لا تنفك عن زيادة اجور التعليم التي تتقاضاها من الناس على تعليم اولادهم من حين الى حين وقد بلغت من ذلك الى حد ان صارت تربية الاولاد عبأ ثقيلاً حتى على أوساط الناس واذا استمر هذا التزايد أمسى التعليم زخرفاً لا يتسنى التحلي به الا في بيوت

الاغنياء فقط ومن المبادئ التي يجري عليها القابضون على ازمة امورنا ان لاحق لاولاد الفقراء في نوع ما من التعليم فهم يجاهرون به كل المجاهرة ويبدونهم على الدوام في حديثهم وتقاريرهم وكتبهم .

نعم انه من المسلم الى حد محدود أن الوالد الذي يخصص جزأ من دخله لتربية أولاده يهمه ان يحصل من التربية على مقابل هذا الجزء وانه يراقب ولده في التعلم مراقبة فعلية ليحمله على الاستفادة من تعليم يكلفه كثيراً من النفقات ولكن الذي لا يسلم به أحد ولا دليل عليه من التجربة هو ان يستنتج من هذا ان كل تعليم مجاني يكون عقيما فانه مما تنبغي ملاحظته ان التعليم في المدارس المصرية من عهد محمد علي (باشا) الى سنة ١٨٨٢ كان مجانيا في كل هذه المدة ولم يعنم هذا ان تنتج تلك المدارس عدداً من الرجال المتعلمين تعلما حقيقيا ومعظمهم من الفقراء ولم يضر اوربا ان التعليم مجاني في كثير من البلدان ولكن أي فائدة لنا من الاستشهاد بما غبر من الاختبار في مصر وما حضر من الاختبار باوربا مادام الذين بيدهم مقاليد حكومتنا مصممين على ان لا يقبلوا الا ما يهديهم اليه فكرهم

يشق على الانسان ان يرى كل سنة مشهد توارد الآباء والامهات على نظارة المعارف يقودون صغارهم اليها سائلين التصدق عليهم بقبولهم مجانا في مدارسها معتذرين بفقرهم ومدلين بما يكون بعض أفراد أهلهم قد أدوه الى الحكومة من الخدم مؤملين على الدوام ان العناية الالهية والمرحمة القلبية تلين صلابة ذلك المبدأ ولو مرة واحدة ولكنهم يضطرون في آخر الامر الى الرجوع الى بيوتهم أو الى قراهم خائبين خائري العزائم غير راضين لا يدرون ماذا يفعلون بهؤلاء الابناء الاعزاء الذين تمنوا لهم اماني كثيرة

ما حيلتنا؟ يقولون لنا «ان بين ظهرانيكم من أبناء وطنكم اغنياء في وسعهم إنشاء مدارس مجانية للفقراء»

آه وأسفاه! نعم ان أبناء وطننا في وسعهم القيام بهذا العمل وبأحسن منه ولكن مصر لما يوجد فيها محبون للانسانية وأخص من بينهم محبي الانسانية المستنيرين، قد يوجد احيانا بعض منهم يشيدون مساجد لا حاجة اليها لكثرتها عندنا وبعض آخر يقف جزءا من عقاره على ولي ولكن همة الناس وانبعاثها الى العمل لم توجه نحو التعليم فأمتنا أقامت زمنا طويلا تعتمد على الجماعة في كل شيء ومن أجل كل شيء

أما اذا نحن نظرنا الى هذا التعليم الذي تقوم به الحكومة المصرية من جهة قيمته فاننا نضطر الى القول بأنه قلما يكون رجلا في قدرته ان يمارس حرفة تقوم بمعيشته ويستحيل ان يشيء عالما أو كاتبا أو فيلسوفا فكيف بالنوابغ في شيء من هذا

وليس للتعليم العالي بمصر سوى مدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة المهندسخانة. اما جميع العلوم الاخرى التي تتألف منها معارف الانسان فالمصري قد يأخذ منها بعض معلومات سطحية في المدارس التجهيزية ولكن يكاد يكون من المتعذر عليه ان يدرسها دراسة وافية بل يقضي عليه غالبا ان يجهلها — فعلم الاجتماع بفروعه التاريخية والاخلاقية والاقتصادية وعلم الفلسفة القديمة والحديثة وعلم آداب اللغة العربية واللغات الاوربية وكذلك الفنون الجميلة لا تعلم بالكلية في مدرسة ما من المدارس المصرية

فكان فينا القضاة والمحامون، والاطباء والمهندسون، ممن تختلف درجاتهم في العلم ولكنا لا نجد في طبقة منهم ذلك الباحث ولا ذلك المفكر

ولا ذلك الفيلسوف ولا ذلك العالم ولا ذلك الانسان الذي يمتاز بعمق التفكر والنظر وبشهامة الفؤاد وكرم السجايا الذي أوقف حياته كلها على السعي وراء مطلب من مطالب الكمال

وصفوة القول ان خطة الحكومة التي رسمتها لنفسها ويظهر انها مصممة على ان لا تحيد عنها تتلخص في أمور ثلاثة (أولها) مساعدة التعليم الابتدائي في المدارس الصغيرة المسماة بالكتاتيب حيث تعلم الكتابة والقراءة وقواعد الحساب الاربع (ثانيها) التقليل من نشر التعليم في الامة ما أمكن (ثالثها) حصر التعليم الثانوي والتعليم العالي في اضيق الدوائر

المصريون موقنون بأن من بيدهم مقاليد أمورهم العمومية لا يعملون كل ما في وسعهم لترقية الناشئين اخلاقا وعقولا وهذا الرأي مما يدعو الى الاسف والاسى من جميع الوجوه فانه سيحدث في الرأي العام تيارا من الاستياء ان لم يكن عاجلا فآجلا وليت شعري ماذا يربح الانكليز من التمادي في ترك هذا الاعتقاد راسخا في النفوس ! واذا كان ثمة أمر يصح ان يتلاقى فيه الطرفان ويكون قاعدة للاتحاد فانما هو التعليم العام اذ لا يمكن ان يوجد تناقض بين مصلحة الانكليز ومصلحة المصريين في هذا المقصد

فمن أراد استدرار ما في مصر من المنافع والخيرات فسبيله في ذلك ان يعنى بتعهد كل ما فيها من موارد الثروة وان يبدأ بالانسان بكل ما فيه من معاني الانسان فلا بد من امتزاج العنصرين الاوروبي والوطني واخذهما على التكاتف في السير نحو هذه الغاية يدا بيد

ولعمري ان الانكليز ليسيئون الى أنفسهم اذا وهنوا الاهلين وارخصوا من قيمتهم وصغروا من شأنهم فانما مصلحتهم في ان يكونوا بناء هذا الوطن

اعزاء اغنياء احراراً فان موارد الثروة والخير للانكليز منوطة بما يصيبنا من ثراء ورخاء »

هذا ماجاء في رسالة الشيخ محمد عبده لجورفيل عن المعارف ويليه كلام عن الحقانية ومعاملة الانكليز للموظفين المصريين ملخصه انهم يلتمسون ضعيف الارادة الذي يخضع لهم في كل شيء ولا يناقشهم في عمل ما ويقصون المستقلين في الفكر والارادة . وان كل رئيس منهم يعد نفسه مشترعا فكلما خطر له استبدال قانون بقانون وضع قانونا جديدا وأنفذه لان مجلس النظار لا استقلال له فيناقش أو يعارض ومجلس شورى القوانين ليس له الا حق بيان الرأي والحكومة غير مكلفة الاخذ بقوله على ان فيه من الضعف مافيه لان الافراد الذين يصلحون فيه للبحث قليلون

فأي شيء من هذه الرسالة ينكر اللورد لتثبته له ؟ اما انه لا ينكر منها شيئاً ولكنه عز عليه ان يرى في كتاب أوربي كلاما في عيوب ادارة مصر لرجل معروف بالصدق وعلو المكانة عند الاوربيين ولذلك قال انه أعطى رجاحة اسمه لجورفيل الخ

ان اللورد نفسه قد اعترف كتابة بأن المعتدلين الذين سماهم حزب أو أتباع محمد عبده لم يشجعوا كما ينبغي وقال في تقرير سنة ١٩٠٥ ان تعيين سعد باشا زغلول في الوزارة وهو أشهرهم انما هو تجربة . فهل له ان يقول مع ذلك ان ما كتبه الشيخ لموسيو جورفيل لا أساس له في اعتقاده ؟

لقد كان هو وجميع أهل الرأي في مصر يعتقدون حقية ما كتبه وهذا الاعتقاد لا يزول الا بعمل ينقضه فاذا كانت الحكومة الاحتلالية مخلصة فيما فعلت وتفعل لمصر وكان ما ذكره الشيخ من عيوب ادارتها غير متعمد

منها فلتدارك بمساعدة المستقلين من المصريين ولا يعسر عليها الاهتداء اليهم

أما ماقاله الشيخ في رسالة عن المعارف فنه ما هو حكاية عن اعتقاد المصريين واستيائهم وهو مؤيد بما تذكره جميع الجرائد آنا بعد آن وبما ظهر في مجلس الشورى والجمعية العمومية فكيف يقول اللورد انه لا أساس له ؟ ألم ينبأ بما جرى في هذا العام — حتى بعد ان قام ناظر المعارف بهذه النهضة الجديدة في ترقية التعليم من جهات متعددة — من قيام التلاميذ والجرائد والناس على مستر دنلوب بما كان قد ازدحم في مراكز الفكر والشعور من سوء حال الماضي . اذ لم يكن قد ظهر به مصداق قول الشيخ انه سيحدث في الرأي العام تيار استياء عام من حال التعليم عاجلا أو آجلا فان ما ظهر قريب منه ولولا هذا الاصلاح الجديد لظهر اتم الظهور

اما باقي كلام الشيخ فهو حكاية عن سياسة المحتلين في التعليم وهو مؤيد بما كتبه اللورد في تقرير تلك السنة فانه قال (كما في ص ١٣٣ وما بعدها من النسخة العربية لتقريره عن سنة ١٩٠٥)

« يراد بهذه السياسة ابطال التعليم المجاني تدريجا من المدارس الاميرية التي هي فوق الكتاتيب وزيادة الاجور فيها » ثم احتج على ذلك بكون الغرض منها تعليم التلاميذ تعليما أوربيا لكي تعد جمهورا من الشبان المصريين لخدمة الحكومة ولتعاطي بعض الفنون » ثم ذكر ان محمد علي انشأ هذه المدارس لفرنجة البلاد وان عباسا الاول ألغاها بعد ان خرج منها ما يزيد على عدد الوظائف وأعادها اسماعيل لفرنجة البلاد كما كانت وانها كانت مجانا بل كان التلاميذ فيها يأكلون ويأخذون مرتبات واظهر استحسان ذلك من قبل والاستغناء عنه الآن ثم قال « ويجب على الحكومة

ان تتوخى جعل اجرة التعليم في كل مدارسها المتفرنجة مقاربة للنفقات التي تنفقها عليه . والاموال التي تنفقها على هذه المدارس تصير تنفقها على التعليم الاهلي الالزم لحاجة الامة ، ويعني بالالزم لحاجات الامة تعليم الكتابة والصنائع فقط وهذا مالا يسلم به مصري قط

ثم ذكر ان الانكليز لما احتلوا البلاد وجدوا ان كل ما تنفقه المعارف العمومية « انما تنفقه على تعليم أولاد فئة صغيرة أكثرها من اغنى أغنياء السكان ولا تعلمهم الا تعليما أوربيا فأخذوا في تغيير تلك الحال وبذلت الهمة منذ سنة ١٨٨٤ لاخذ الاجور من التلامذة ولا بطال التعليم المجاني تدريجا ولكن بقي النجاح في هذا السبيل بطيئا جدا الى عهد قريب » ثم استدل بذلك على « ان ابطال التعليم المجاني وازدياد أجرة التعليم ليس من دلائل التأخر ولا هما مضران بمصلحة البلاد الحقيقية بل هما بمثابة ابطال امتياز » الخ

فكيف يقول اللورد مع هذا ان الشيخ كتب ما يعلم انه لا أساس له ؟ سبحان الله كأن الشيخ كان يكتب سنة ١٩٠٥ لجورفيل في الوقت الذي كان اللورد يكتب فيه لناظر خارجيتهم ما يؤيد قوله ألم تر ان الشيخ قد كتب انهم يعني ولاة الامور يقولون لنا ان فيكم أغنيا يجب أن ينشئوا المدارس المجانية للفقراء ، وان اللورد كتب في تقريره (ص ١٣٥ و١٣٦) « واذا أريد تمهيد السبل للتلامذة الذين تبدو عليهم مخايل النجابة الفائقة لكي يدخلوا المدارس العليا ووسائطهم المالية لا تكفي لذلك وجب ان يقف المحسنون اموالا لتلك المدارس التي يعلم بها من كان مثل أولئك التلامذة ووقف هذه الاموال لتعليم التلامذة الفقراء الذين يستحقون ان يساعدوا انفع جدا من تكثير المدارس الابتدائية المتفرنجة » (للكلام بقية)

دعا سليم افندي سركيس السوريين بمصر وغيرها الى الاكتتاب للاحتفال بحافظ افندي ابراهيم الذي نوه بفضلهم ليكون هذا الاحتفال توددا من شعب الى شعب هما بمنزلة الشقيقين. فلبى الدعوة كثيرون وبعد انتهاء مدة الاكتتاب اقيمت الحفلة بفندق شبرد وحضرها مع جمهور المكتتبين كثيرون من وجهاء وادباء المصريين واصحاب الجرائد وكان ترتيبها هكذا

افتتح الاحتفال سليم افندي سركيس ببيان الغرض منه. خطب سليمان افندي البستاني في الشعر والشعراء. أنشد نقولا افندي رزق الله قصيدة «مصر وسوريا». خطب سليم بك باخوس في إكرام الرجال للرجال. تليت قصيدة للأمير شكيب ارسلان. خطب اسماعيل بك عاصم. أنشد امين افندي البستاني قصيدة له. خطب رفيق بك العظم. تليت قصيدة لاسعد افندي رستم. قرىء كتاب في تحية الصحافة للشعراء المرسل من ادارة جريدة مرآة الغرب بنيويورك. أنشد الدكتور ابراهيم افندي شدودي قصيدة له. وقدم سليم افندي سركيس لحافظ افندي هدية وراق المصري في البرازيل وهي قلم من الذهب بشكل الريشة ثم الهدية الاكرامية من مجموع السوريين وهي دواة ومقلمة من الفضة. وختمت الحفلة بقصيدة الشكر من حافظ وهي

لمصرَ ام لربوع الشام تنتسبُ ... هنا العلى وهناك المجد والحسبُ
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما ... قلبُ الهلال عليها خافقٌ يجب
خدران (للضاد) لم تهتك ستورهما ... ولا تحوّل عن مغناهما الادب
أمُّ اللغات غداة الفخر أمهما ... وان سألت عن الآباء فالعرب
ايرغبان عن الحسنى وبينهما ... في رائعات المعالي ذلك النسب
ولا يمتّان بالقربى وبينهما ... تلك القرابة لم يقطع لها سبب
إذا ألمت بوادي النيل نازلةٌ ... باتت له راسيات الشام تضطرب
وان دعا في ثرى الاهرام ذو ألمٍ ... اجابه في ذرى لبنان منتحب
لو أخلص النيل والأردنُّ ودّهما ... تصافحت منهما الأمواه والعشب
بالواديين تمشّى الفخر مشيته ... يحفُّ ناحيتيه الجود والدأب
فسال هذا سخاء دونه ديمٌ ... وسال ذلك مضاء دونه القضب
نسيمَ لبنان كم جادتك عاطرةٌ ... من الرياض وكم حياكَ منسكب

في الشرق والغرب انفاس مسعَّرة　　تهفو اليك واكباد بها لهب
لولا طلاب العلا لم يبتغوا بدلاً　　من طيب رياك لكن العلا تعب
كم غادة بربوع الشام باكية　　على أليف لها يرمي به الطلب
يمضي ولا حلية الا عزيمته　　وينثني وحلاه المجد والذهب
يكرُّ صرف الليالي عنه منقلباً　　وعزمه ليس يدري كيف ينقلب
بأرض (كولمب) ابطالٌ غطارفة　　اسد جياعٌ اذا ما وثبوا وثبوا
لم يحمهم علمٌ فيها ولا عددٌ　　سوى مضاء تحامى ورده النوب
اسطولهم املٌ في البحر مرتحلٌ　　وجيشهم عملٌ في البر مغترب
لهم بكل خضم مسربٌ نهجٌ　　وفي ذرى كل طود مسلك عجب
لم تبدُ بارقةٌ في أفق منتجع　　الا وكان لها بالشام مرتقب
ما عابهم انهم في الارض قد نثروا　　فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يضرهم سراهم في مناكبها　　فكل حيٍّ له في الكون مضطرب
رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا　　الى المجرة ركبا صاعداً ركبوا
أو قيل في الشمس للراجين منتجع　　مدوا لها سبباً في الجو وانتدبوا
سعوا الى الكسب محموداً وما فتئت　　أم اللغات بذاك السعي تكتسبُ
فأين كان الشآميون كان لها　　عيشٌ جديد وفضل ليس يحتجب
هذي يدي عن بني مصر تصافحكم　　فصافحوها تصافح نفسها العربُ
فما الكنانة الا الشام عاج على　　ربوعها من بنيها سادة نجب
لولا رجال تغالوا في سياستهم　　منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا
ان يكتبوا لي ذنباً في مودتهم　　فانما الفخر في الذنب الذي كتبوا